لا يكتفي الوردي بتعديل ضروري لابن خلدون، بل يتعدّاه إلى الزجّ بمنظومة كاملة من المقولات والمفاهيم المستمدّة من علم الاجتماع الغربي، ليبني مفهومه الجديد حول صراع البداوة والحضارة

هـا نحـن إذاً إزاء علـم اجتمـاع عـربي يحبـو مثقـلاً بعسر اكتشافه أنَّه و«مجتمعه» في عصر انتقالي، يتفكّك فيه المجتمع الزراعي المتجزّئ قبائلَ وطوائف، ومُدناً مغلقة متعادية، هي ذاتها مقسّمة إلى أحياء محتربة (تذكّرنا بالتقاتل بين آل كابوليت وآل مونتاجيو في مسرحيّة روميو وجولييت)، هو عبارة عن عالم يسوده شيوخ العشائر، والسادة والأشراف، والوجهاء، وزعماء الطرق الصوفيّة، والأعيان، والأفنديّة (الموظّفون)، والأرستقراطيّة العثمانيّة، ونقباء التجّار وقادة الأصناف الحرفيّة، يعيش حقبة تفكّك المراتب القديمة من حرف وصنايع، وسادة وأشراف ومشايخ، وعلى مشارف بروز الطبقات الحديثة.

لا وجود هنا للفرد، ولا للأمّة الصناعيّة الحديثة، ولا للمجتمع الصناعي-التعاقدي، ولا للطبقات محدّدة الملامح. ما نفع علم اجتماع يقوم على كلّ هذه الركائز، شبه الغائبة، إذن؟

خامساً: الغوث من ابن خلدون

الاستغاثة بابن خلدون تكاد تكون واحدة من الموتيفات العربيّة-الإسلاميّة، ولئن كان علي الوردي قد دشّن عمله العلمي بأطروحة عن منطق ابن خلدون أواخر أربعينيّات القرن العشرين، فإنَّ الاهتمام بابن خلدون بوصفه مرجعاً سوسيولوجيّاً «محليّاً» أو «خاصّاً» بحضارتنا لم ينقطع حتى اللّحظة.[٥]

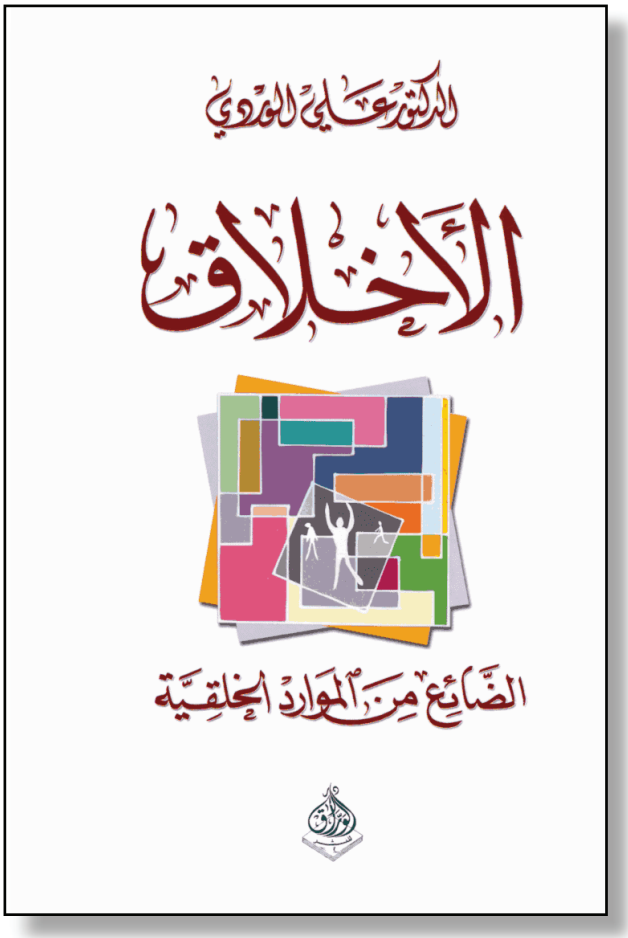

يستعير الوردي من ابن خلدون مسألتين:

فكرة منهجيّة لا أرسطيّة: منطق الاستقراء (induction)؛ أي دراسة الجزئيّات وصولاً إلى الاستدلالات العامّة، ودراسة الجزئيّات تشترط، بالتعريف، البحث الميداني لا التأمّلي. ورغم البُعد الإسلامي لمفهوم الاستقراء، إلّا أنَّ شيوعه تحقق عبر المدرسة التجريبيّة الإنكليزيّة (من روجر بيكون إلى فرانسيس بيكون).

فكرة صراع البداوة والحضارة باعتبارها مقولة سوسيولوجيّة تحليليّة.

لكنَّ الأمر لا يتوقف عند هذا الحد. فالوردي يعيد بناء النظريّة، بل يقلبها رأساً على عقب. فصراع البداوة والحضارة الخلدوني يقوم بين نمطين متضادّين ومنفصلين ومتفاعلين من التنظيم الاجتماعي، هما المدن (أو الحواضر) والبوادي. أمّا عند الوردي، فهما ازدواج قيمي داخل المدينة، وضمن الدولة الحديثة أوّلاً. وهو، عند الوردي، نتاج صراع الحضارة العراقيّة

٥ـ انظر، على سبيل المثال لا الحصر، كتاب سيد فريد العطاس، القادم من سنغافورة، الذي نشره بالإنكليزيّة تحت عنوان "بناة الحضارة الإسلاميّة: ابن خلدون"، عن منشورات جامعة أوكسفورد، سنة ٢٠١٣:

Syed Farid Alatas, Makers of Islamic Civilization, Ibn Khaldun, Oxford University Press, Oxford, ٢٠١٣